الفصل الخامس

فى تطور الكتابة ومراكز تجويدها
وضع المعايير والافتنان فى الخطوط

أما تجويد الكتابة العربية فقد كان على مراحل وفى مراكز متعددة — فأول العناية بها كانت فى الحجاز فى عصر النبوه لشدة لزومها لتدوين القرآن، وإن لم تخلف الأيام لنا من هذا العصر أمثلة ما ، غير مثال واحد مشكوك فيه، هو خطاب النبى إلى المقوقس المكتوب بخط الكوفة قبل إنشاء الكوفة .

ولكن مما لا شك فيه أن الكوفة عند ما اتخذت مقراً للخلافة أيام على بن أبى طالب، كانت مركزاً من مراكز التجويد والافتنان فى الكتابة العربية ، وإليها ينتسب خط معروف جاف ذو زوايا كتبت به المصاحف الأولى . وظل هذا الخط الكوفى المصحفى متداولا مفضلا فى كتابة كلم الله المقدس حتى نهاية القرن الرابع الهجرى تقريباً عند ما غلبه خط آخر على أمره استخدم فى كتابة القرآن هو خط النسخ .

ومهما يكن من الأمر ، فقد عرفت الكوفة خطاً ليناً دونت به الدواوين وكتبت به المراسلات ، ولا بد أن تكون قد جودته ونافست به خط البصرة فى تلك الفترة الزمنية التى احتدم فيها الجدل بين الكوفيين والبصريين وبلغت المنافسة الأدبية بينهما أوجها ، فى القرنين الثانى والثالث الهجريين .

على أن المصادر الأدبية تحتفظ لنا بأسماء نفر من المجودين البصريين للخط الكوفى منهم « خشنام » الذى كان يكتب خطاً جليلا مقوماً ، قيل كان يكتب فى « طومار » بسعفة — والطومار قطع من الورق المعروف حينذاك ، والسعفة جريدة النخل . وأغلب الظن أن الفروق بين خطوط الكوفة وخطوط البصرة كانت فروق تجويد ، لا فروق خصائص ، لقرب ما بين المدينتين فى المكان .

وبانتقال الخلافة من الكوفة إلى دمشق وقيام الدولة الأموية ، انتقل مركز العناية بالكتابة العربية إلى الشام ، وعنى خلفاء بنى أمية بأمر الكتابة لإدراكهم مكانها فى نشر الدعوة الإسلامية والترويج لخلافتهم المغتصبة من آل البيت . واشتهر من مجوديهم « قطبة المحرر » .

واخترع الشآميون نوعاً من الورق عرف بالقرطاس الشامى فساهموا بدورهم فى ارتقاء الكتابة العربية وتجويدها ...

* * *

وأكبر قطع من الورق استخدمه العرب للكتابة هو قطع « الدرَج » والدرج هو الملف الكامل ، وكان الدرج يتخذ إما من البردى ، أو الورق ، أو الأديم . و« والطومار » ½ الدرج ، وكان له قلم جليل يكتب به فيه ، عرف فيما بعد بقلم الطومار ؛ أى القلم الذى يناسب الكتابة فى قطع الطومار .

وتنوعت الأقلام فى نهاية عصر الدولة الأموية حين ينسب إلى « قطبة المحرر » اختراع أربعة أقلام جديدة تبعد عن صورة الكوفى .

أما هندسة الحروف العربية وتجويدها فمن آثار الفترة الأولى من العصر العباسى فى العراق . وتنسب إلى رجلين من أهل الشام ، أحدهما « الضحاك » وثانيهما « اسحق » الأول عاش فى خلافة السفاح ، وينسبون إليه زيادة الافتنان فيما ابتكر قطبة من أقلام ، والثانى عاش فى خلافة « المنصور » حتى أدرك «المهدى»

والمقول أن جهد هذين المجودين قد انتهى بالأقلام العربية إلى أن صارت اثنى عشر قلماً منوعاً .

وقبل أن ينقضى القرن الثالث الهجرى كان « ابراهيم السجزى» قد أخذ عن « اسحق بن حماد » قلمه « الجليل » وهو أكبر الأقلام التى كان يكتب بها ، وولد منه خطين جديدين هما خط الثلث وخط الثلثين . ويغلب أن يكون الخط الجليل هذا هو خط الطومار ، وأن يكون الثلث ثلث الطومار ، والثلثان ثلثاه . وهكذا كان لكل قطع من الورق قلم يناسبه يكتب به فيه .

ويقولون إن أخاً لإبراهيم السجزى اسمه يوسف ولد خطا جديداً هو خط التوقيع الذى حررت به المكاتبات السلطانية .

كما يقولون إن « الأحول المحرر» من صنائع البرامكة استخلص من الخط الجليل قلماً اسماه « خط النصف » وآخر اسماه «خفيف الثلث » وثالث اسماه « المسلسل » أى الذى تتصل حروفه ، فلا ينفصل منها شىء .

والشائع أن جودة الخط قد انتهت على رأس الثلثمائة إلى الوزير « أبى على محمد بن مقلة » وأخيه عبدالله ، ينسب إلى أولهما

أنه هندس الحروف وضبطها على النسبة، وأجاد خطا عرف بالدرج ، كما أجاد أخوه نوعاً عرف « بالنسخ » .

وممن يذكرون بتجويد الخط فى أوائل القرن الخامس الهجرى فى العراق أبو الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب .

وكان للخط العربى عشاق توفروا على الاجادة فيه على طول السنين ، وتحتفظ المصادر التاريخية بكثير من اسماء هؤلاء ، منهم النساء ومنهم الرجال . وممن برزوا فى تجويد الخط فى أواخر القرن السابع الهجرى ياقوت بن عبدالله الرومى المشهور بالمستعصمى والملقب بقبلة الكتاب .

وكان لمصر فضل يذكر فى تجويد الخط العربى منذ عصر الدولة الطولونية . فقد كان على رأس المدرسة المجودة فى مصر « طبطب » الذى كان يكتب لأحمد بن طولون . ونافست الدولة الفاطمية فى مصر دولة العباسيين فى تجويد الخط . وقد كانت له على الأرجح فى ديارنا مدرسة سهرت على تحسينه ورقيه فى هذا العصر ، أجادت كل أنواعه التى اخترعت فى العراق وزادت عليها أنواعاً أخرى أعجب بها الحنفاء . وكان للخط مكتبون يعلمونه فى كل مكان . واشتهرت الفسطاط بتجويد الخط . وبقيت مدارسه

بها عامرة حتى عصر المماليك حين أصبحت لمصر المكانة الأولى فى تجويد أنواع الخطوط العربية التى عرفت حتى هذا العصر ، فغدت بفضل رعاية سلاطين المماليك للأدب والفن قبلة هذا التجويد ، وتذكر المصادر الأدبية ولا سيما ما دون منها فى عصر المماليك «كصبح الأعشى» أنواع الخطوط العربية المتعارفة وصورها « والنسبة الفاضلة » فيها ، وتظهرنا على نماذج منها ، كما تذكر رجالا عنوا بالقيام على أمر الخط العربى فى ديار مصر على هذا العهد ، أشهرهم الشيخ شمس الدين بن أبى رقيبة محتسب الفسطاط ، والشيخ شمس الدين بن على الزفتاوى المكتب بالفسطاط ، أولهما أخذ أصوله عما خلف ابن البواب المجود العراقى .

والأرجح أن يكون المماليك والفاطميون من قبلهم قد استهووا نفراً من خيرة المجودين للخط ، استقدموهم من العراق لمنافسة دار الخلافة فى فن يعتبره الإسلام أقدس الفنون إطلاقاً ، لأنه استخدم أول كل شىء فى نسخ القرآن ، كلم الله المقدس . وكانت عناية الفاطميين وسلاطين المماليك بالخط نوعاً من الترف الفنى الذى لا غنى لدولة ناهضة تنافس دولة الخلافة عن اتخاذه مظهراً

من مظاهر الرغد والتوفر على الفنون . وقد كان الخط يعلم لبعض خلفاء الفاطميين ، ومنهم من أجاده ونبغ فيه ، وكذلك كان شأن بعض سلاطين المماليك .

وقدر للخط العربى أن ينال فى شمال الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجرى نصيباً من التجويد بتحوله عن صوره السابقة إلى صورتين جديدتين إحدا ما تعتبر تطوراً « لخطوط النساخ » التى خطت بها المخطوطات ، هى ذلك الخط الرائق البهج الذى عرف فى مصطلح الخطوط باسم « خط النسخ » ، وهو ابتكار سورى شمالى حذقه الشاميون الشماليون ، والأخرى خط آخر مستدير حل محل الخطوط الكوفية التذكارية ذات الزوايا فى النقش على المواد الصلبة ، هو خط الطومار ومشتقاته . ومنذ هذا التاريخ كتب للخطوط اللينة أن تسود ، وأن يعم استخدامها فى الأغراض التذكارية من تسجيل لوفاة ، أو تأريخ لأثر ، أو زخرفة لبعض المساحات فى المبانى الدينية .

ومنذ هذا التاريخ أيضاً هجرت خطوط الكوفة فى كتابة المصاحف ، وحلت محلها الخطوط اللينة بأنواعها المختلفة ، ففى ديار الأتابكة جودت خطوط النساخ حتى تولد منها خط

جرى على نسبة ثابتة ، امتاز بجمال الرونق ووفرة الرواء هو خط النسخ الأتابكى الذى كتبت به المصاحف فى العصور الوسطى الإسلامية فى هذه الأقاليم .

ومنذ العصر الأيوبى فى مصر والشام بدأنا نرى الخطوط المستديرة تحل محل الخطوط الجافة الكوفية على المبانى والأحجار . ولم يلبث هذا النوع من الكتابات أن انتشر فى شرق العالم الإسلامى وغربه ، وغدا الذوق المفضل فى النقش على المواد الصلبة لتأدية الأغراض التذكارية ، ولم ينقض القرن السادس الهجرى حتى قل شأن الخطوط الكوفية ، سواء فى كتابة المصاحف أو فى النقش على الأحجار وفى المعادن .

* * *

وأول من قرر للخط معايير يضبط بها هو الوزير العباسى « ابن مقلة » الذى راعى فى تجويده وتصحيحه أن يجرى على نسبة فاضلة ، إن زاد عنها قبح ، وإن قصر دونها سمج ؛ وكان ذلك فى العراق على رأس الثلثمائة (٣٠٠ هـ) ، وقد سمى الخط الذى يجرى على النسبة الفاضلة (محققاً) ، وسمى الخط الذى لا يلتزم هذه النسبة (دارجاً) أو (مطلقاً) ، الأول يستعمل

فى الأمور الجسيمة التى يقصد بها التخليد والبقاء على الأعقاب ، وكانت تكتب به مراسلات الملوك وتخط المصاحف ، والثانى تؤدى به الأغراض اليومية العاجلة .

وقد حفظ لنا القلقشندى ونفر غيره ممن سبقوه شيئاً غير قليل من آداب الخط العربى على لسان عدد من الثقات كابن مقلة وابن البواب وابن عبد السلام وصاحب رسالة الموسيقى من إخوان الصفا وابن الصائغ وابن العفيف وصاحب الحلية والمدائنى والسرمرى والشيخ المجود زين الدين بن شعبان الآثارى المصرى .

ويعتبر ما كتب القلقشندى وابن درستويه وابن النديم والصولى عن آداب الكتابة العربية وضوابطها أوسع ما كتب على الإطلاق فى هذا السبيل ، ولا غنى لمن يريد الرجوع إلى هذه الآداب من الاطلاع على صبح الأعشى ، والعقد الفريد ، وأدب الكتاب والفهرست .

ويقولون فى حسن الخط : « إذا كان الخط حسن الوصف ، مليح الرصف ، مفتح العيون ، أملس المتون ، كثير الائتلاف ، قليل الاختلاف ، هشت إليه النفوس ، واشتهته الأرواح — حتى إن الإنسان ليقرؤه ولو كان فيه كلام دنىء ومعنى ردىء ،

مستزيداً منه ولو كثر ، من غير سآمة تلحقه ، وإذا كان الخط قبيحاً ، مجته الأفهام ولفظته ، العيون والأفكار ، وسئم قارئه ، وان كان فيه من الحكمة عجائبها ومن الألفاظ غرائبها . »

ويقولون : أيضاً « أجود الخط أبينه ، والخط الحسن هو البين الرائق البهج . وينصحون كل من يريد تجويد خطه بقولهم : ألق دواتك ، وأطل شباة قلمك ، وفرج بين السطور ، وقرمط بين الحروف . »

وسأل الصولى بعض الكتاب عن الخط : متى يستحق أن يوصف بالجودة فقال : « إذا اعتدلت أقسامه . وطالت ألفه ولامه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدوره ، وتفتحت عيونه ، ولم تشتبه راؤه وبوبه ، وأشرق قرطاسه ، وأظلمت أنقاسه ، ولم تختلف أجناسه ، وأسرع إلى العيون تصوره ، وإلى القلوب تنمره ، وقدرت فصوله ، وأدمجت أصوله وتناسب دقيقه وجليله ، وتساوت أطنابه ، واستدارت أهدابه وصغرت نواجذه ، وانفتحت محاجره ، وخرج عن نمط الوراقين . وبعد عن تصنع المحررين ، وخيل أنه يتحرك وهو ساكن » .

نسب ابن مقلة جميع الحروف إلى الألف التى اتخذها مقياساً أساسياً، وإليه ينسب « الخط المنسوب»، بمعنى الخط الذى تنتسب حروفه إلى بعض بنسبة هندسية :

فالباء مثلا تتكون (هندسياً)* من قائم ومنبسط طولها معاً كطول الألف .

والجيم تتكون من خط مائل ونصف دائرة قطرها بطول الألف .

والدال تتكون من خطين ، الأول مائل والثانى على مستوى التسطيح ، طولها معاً كطول الألف .

والراء قوس هو ربع دائرة ، الألف قطرها .

وعلى هذا الأساس ، وضع ابن مقلة قانونه الذى يضبط أصول الخط ، وأكمل عمله وضبطه ابن عبد السلام . ولايغيب عن البال أن اخضاع الخط للقوانين الهندسية البحتة يجرده من الجمال ويجعله جافاً ليس فيه أثر من الحياة .

وجاء ابن البواب بعد ابن مقلة بما يقرب من القرن فأسبغ على الخط كثيراً من مظاهر الجمال ، دون أن يخل فى كثير أو قليل من قواعده وأصوله الهندسية والرياضية . وبعد ذلك بقرن

آخر أجاد ياقوت المستعصمى صناعة الخط ، وكانت له من أجل ذلك حظوة لدى الخليفة المستعصم العباسى .

وللمصريين نصيب قيم فى تجويد الخطوط ، واشتراك فى وضع معاييرها ، والشيخ زين الدين بن شعبان الآثارى أشهر من نبغ فى هذه الناحية من المصريين فى العصر الوسيط ، وله «ألفية» متضمنة أصول الخط ومعاييره .

والكل متفقون على أن الأفضل أن « يبنى الخط على أصل يكون أساساً له ، فإذا فصلت أحواله ، انكشف فساد كثير من حروفه » .

وكانوا يقدرون اعتبار صحة الحروف بالنقط ، فالألف التى هى شكل مركب من خط منتصب ، يجب أن يكون مستقيما غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب ، وهى قاعدة الحروف المفردة كلها ، وباقى الحروف متفرع عنها منسوب إليها ، هذه الألف مساحتها فى الطول تكون ثمان نقط من نقط القلم الذى تكتب به ، ليكون العرض ثمن الطول ، هكذا يقدرها صاحب رسالة الموسيقى من إخوان الصفا .

أما ابن عبد السلام فيقدرها بست .

ويقدرها الشيخ زين الدين بن شعبان المصرى بسبع .

* * *

وجعلوا للأقلام ألقاباً هى الثلث (ثلث الطومار ، وهو أكبر الخطوط كما تقدم) والثلثان ، والنصف ، وخفيف الثلث ، والمسلسل ، والغبار (وهو خط دقيق سموه كذلك لشبه صغره بصغر حبات الغبار ، من قبيل المبالغة) .

والقدماء يستعملون كلمة الحامة للألف واللام ، يقصدون بها أعلاها ، ويسمون الجزء الأول من العين والصاد والفاء « رأساً » . كما يسمون الأجزاء المستديرة المكملة لهذه الحروف « عراقات » ، المفرد « عراقة » بدلا من كلمة « كاسة » التى يستعملها المحدثون .

وللقدماء فى التعريف بالحروف وتشريح أجزائها ووصف هذه الأجزاء اصطلاحات غاية فى الدقة والإحكام ، حبذا لو عنى المحدثون بدراستها وأعادوا استخدامها .

والذى يستخلص من كل هذا ، أن الكتابة العربية كانت على طول القرون العشرة الهجرية الأولى محل عناية نفر من المنقطعين للتجويد ووضع الأصول وإحكام المعايير ، والفضل فى ذلك للعقيدة الاسلامية التى تلقى شيئاً غير قليل من الشك على اتخاذ

« التصوير » فى الفنون الإسلامية ، وأغلب الظن أن عبقرية رجل الفن المسلم قد وجدت فى الكتابة خير بديل عن مزاولة التصوير وتحمل أوزاره ، لما فى التصوير من تقليد لصنعة الخالق .

وقد خلص هؤلاء المجودون والمبتكرون إلى نتيجة هامة هى أن الخط المحقق أى الذى حققت أصوله لا بد يجرى على « نسبة فاضلة » هى النسبة التى أساسها « الألف» الموصوفة آنفاً . والتى تقاس فيها الحروف جميعاً بمقياس هذا الألف . وقد وجد بالتقصى والمشاهدة أن أفضل النسب ما كانت عرض الألف فيه إلى طوله بمقدار الثمن ، وهذه هى النسبة الجمالية فى تركيب جسم الإنسان ، فعرض الجسم الرشيق إلى طوله لا يخرج عنها .

وأفاضوا فيما يحسن وما لا يحسن ، فتكلموا عن المواضع التى يجمل فيها مد الحرف أو «إجراء الاستمداد» فيه كما يقولون ، كما ذكروا « التسطير » بمعنى إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير سطراً منتظم الوضع كالمسطرة ، « والتوفية » بمعنى إعطاء كل حرف حقه من المساحة ، « والإشباع » وهو أن يعطى كل خط حظه من صدر القلم فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ولا أغلظ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف كطرف

الألف من أسفل وطرف الراء من نهايتها ونحو ذلك، و« الإرسال» وهو أن يرسل الكاتب المجود يده بالقلم من غير احتباس يضرس الخط أو توقف يرعشه ، و« التنصيل » وهو حسن اختيار مواقع المدات بين الحروف ، الخ.....

وضع المجودون هذه القيود الجمالية لما رأوا أن مراعاة النسبة فى الحرف الواحد لاتأتى بالنتيجة المرجوة، كما أن مراعاتها فى كافة حروف الكلمة وجدت غير محققة للغاية فى كثير من الأحيان — فقد يكون الحرف المفرد جميلا جارياً على النسبة ، كما قد تكون الكلمة برمتها كذلك ، فى حين يأتى الكلام كله قبيحاً فى تركيبه، ينقصه التسطير ، أو الإشباع ، أو تعوزه التوفية ....

من أجل هذا وضعت هذه القيود الجمالية العامة ، ووجب على مجودى الخط أن يعملوا بمقتضاها .